

المحاضرة الثالثة: فرقة المرجئة والمعتزلة.

أولاً: فرقة المرجئة:

1. تعريف فرقة المرجئة:

الإرجاء على معنيين: أحدهما بمعنى التأخير، كما في قوله تعالى: "قالوا أرّجِه وأخاه" (الأعراف 111)، أي أمهله وأخره، والثاني إعطاء الرجاء، وهي فرقة كلامية بدأت بالتطرق إلى المشاكل السياسية التي حدثت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، ثم تطورت وتدخلت في مسألة الإيمان والكفر، ومسألة مرتكب الكبيرة ومصيره يوم القيامة، وهي بالتالي جاءت للرد على الخوارج الذين حكموا على مرتكب الكبيرة بالخلود في النار، وعلى المعتزلة الذين حكموا على مرتكب الكبيرة بالمنزلة بين المنزلتين.

وهي بالتالي قد خالفتهم في هذه المسألة من حيث: تأخير حكم صاحب مرتكب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضى عليه بحكم سواء الجنة أو النار هذا في مسألة مرتكب الكبيرة، أما مسألة الإيمان والكفر، فقد قالت هذه الفرقة أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وهم بالتالي يقولون أن الإيمان في القلب دون العمل.

2. نشأة فرقة المرجئة:

يرى المؤرخون أن فكر الإرجاء ظهر بعد مقتل عثمان رضي الله عنه وما جرى بين علي وطلحة والزبير وعائشة ومعاوية رضي الله عنهم أجمعين، حيث يرى أصحاب هذا الرأي أنه يجب أن يرجى أمر علي والصحابة إلا الله ولا يشهدون عليهم لا بإيمان ولا بكفر، كما أرجع البعض أنه يدخل ضمن الإرجاء حتى الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة ولم ينجرّفوا نحو أحد الصّفين سواء علي أو معاوية رضي الله عنهما، وهذا الرأي قاصر عن الحقيقة لأن هؤلاء امتثلوا لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم في الفتنة.

والأكيد أن أول من قال بالإرجاء هو الحسن بن محمد الحنفية بن علي رضي الله عنه، يقول ابن عساكر في تاريخه: "قال عثمان بن إبراهيم بن حاطب: أول من تكلم في الإرجاء هو الحسن بن محمد. كنت حاضراً يوم تكلم، وكنت مع عمّي في حلقتي، وكان في الحلقة جحدب وقوم معه. فتكلّموا في عليّ وعثمان وطلحة والزبير، فأكثروا، والحسن ساكت، ثمّ تكلم فقال: قد سمعت مقالكم. أرى أن يرجأ عليّ وعثمان وطلحة والزبير فلا يتولّى ولا يتبرأ منهم. ثمّ قال: فقمنا، فقال لي عمر: يا بنيّ ليتخذنّ هؤلاء هذا الكلام إماماً. فبلغ أباه محمّد بن الحنفية ما قال، فضربه

بعضاً فشجّه وقال: ألا تتولّى أباك عليّاً. ودخل ميسرة عليه فلامه على الكتاب الذي وضعه في الإرجاء، فقال:

لوددت أنّي كنت ميتاً ولم أكتبه"، وبالتالي يعتبر الحسن بن محمد من أبرز أعلام فرقة المرجئة.

ولكن أخذت هذه الفكرة تتطور شيئاً فشيئاً خاصة مع ظهور الخوارج وتكفيرهم للمسلمين، ظهرت بعض الشخصيات والتي حاولت التطرق إلى مسألة الإيمان والكفر، فظهر في الكوفة بعض الفقهاء والذين أخرجوا العمل عن مسمى الإيمان وكان منهم حماد بن سليمان شيخ أبي حنيفة النعمان وغيره من أهل الكوفة والذين قالوا: إن العمل ليس من حقيقة الإيمان؛ وعلى إثر ذلك ظهر الخلاف في حكم مرتكب الكبيرة ومنزلة العمل من الإيمان.

بعده تطورت فكرة الإرجاء إلى مذهب فقرر البعض أن مرتكب الكبيرة كامل بإيمانه وأنه لا تضر مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة وأن الإيمان في القلب، فلا يضر الشخص أي شيء بعد ذلك ولو تلفظ بالكفر والإلحاد، فإنه يبقى إيمانه كاملاً لا ينقص.

وبهذا يمكن تقسيم المرجئة إلى قسمين:

- مرجئة الفقهاء: والذين قالوا إن الإيمان هو تصديق بالقلب ونطق باللسان وأن الأعمال ليست من الإيمان.

- مرجئة الغلاة: وتنقسم إلى قسمين:

أ. مرجئة الجهمية: الإيمان هو تصديق بالقلب فقط دون نطق باللسان ولا عمل.

ب. مرجئة الكرامية: الإيمان هو قول باللسان فقط دون تصديق ودون عمل.

3. أهم أعلام المرجئة:

- الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب، وهو من أوائل الذين تكلموا في الإرجاء.
- حماد بن سليمان شيخ أبي حنيفة.
- أبو حنيفة النعمان والذي كان له موقف من مسألة الإيمان والكفر يقترب من موقف المرجئة، فهو يقول أن الإيمان المعرفة بالله، والإقرار بالله والمعرفة بالرسول والإقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير.
- الجهم بن صفوان مؤسس الجهمية يعد من أبرز من قال بالإرجاء، وهو مؤسس فرقة الجهمية المرجئة والذي يعتبر من أكبر غلاء المرجئة إذ كان يقول أن الإيمان بالله هو المعرفة بالله وبرسوله وبجميع ما جاء من عند الله فقط، وأن ما سوى المعرفة كالإقرار باللسان والخضوع بالقلب والمحبة لله ولرسوله والتعظيم لهما والخوف منهما والعمل بالجوارح ليس بإيمان، فهو يرى أن الكفر بالله هو الجهل بالله، وهو بالتالي يقول أنه إذا أتى بمعرفة الله ثم جحد بلسانه لا يكفر.

- محمد بن كرم السجستاني وهو من غلاة المرجئة كذلك، حيث زعم أن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب، حيث زعموا أن المنافقين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين على الحقيقة.

4. الأصول الفكرية والعقائدية عند المرجئة:

الأصول التي تقوم عليها عقيدة المرجئة هي:

- الفصل بين الإيمان والعمل، وإرجاء الحكم على من ارتكب الكبيرة إلى الله تعالى، فالإيمان عندهم هو المعرفة والتصديق بالقلب فقط.

- الإيمان لا يزيد ولا ينقص، تحت قاعدة لا يضر مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة.

- عدم تكفير مرتكب الكبيرة وإرجاءه إلى يوم القيامة وهم بذلك وافقوا أهل السنة وخالفوا المعتزلة والخوارج.

ثانيا: فرقة المعتزلة.

1. تعريف المعتزلة:

المعتزلة من الفعل عزل يعزل عزلا، يعني نحاً الشيء ووضعها جانبا، واعتزل بمعنى تنحى جانبا، أما تعريفها الاصطلاحي فالمعتزلة هي فرقة كلامية وضعت العقل المصدر الأساسي للتشريع فتطرق إلى العديد من المواضيع والتي سبقتها إليها الفرق الكلامية الأخرى كالقدرية والجبرية، مؤسسها واصل بن عطاء تلميذ الشيخ الحسن البصري، وجاءت المعتزلة في الأصل للرد على شبهة مرتكب الكبيرة حيث وضعته الخوارج في النار مخلدا، بينما وضعته المرجئة على أنه كامل الإيمان، وصنفه واصل بمنزلة بين المنزلتين.

2. نشأة فرقة المعتزلة:

يرى المعتزلة أن فرقته قديمة قدم الإسلام، بحيث تبعها الصحابة رضوان الله عنهم والخلفاء الراشدين كذلك وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار: "ومذهب المعتزلة هو الذي أنزل الله به الكتب، وأرسل به الرسل وجاء به جبريل عليه السلام".

في حين يرى البعض الآخر من المعتزلة كذلك، أن المعتزلة كفرقة وفكر ظهر بعد ظهور الفتنة الكبرى بين الصحابة، حيث اعتزل البعض منهم هذه الفتنة فلم يشاركوا لا إلى جانب علي ولا إلى جانب عائشة وطلحة والزبير ومن ثم معاوية رضي الله عنهم، ومن أهم من اعتزل هذا الأمر عبد الله بن عمر وعبد الله بن العباس وسعد بن أبي وقاص، وربما يرى المعتزلة في رسالة قيس بن سعد بن عباد إلى الخليفة علي بن أبي طالب أساسا لفرقتهم حيث يقول رضي الله عنه: "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أن قبلي رجلا معتزلا قد سألوني أن أكف عنهم، وأن أدعهم على حالتهم، حتى يستقيم أمر الناس..."، وعلى العموم فإن اعتزال الصحابة هنا كان اعتزالا سياسيا فقط، انتهى بانتهاء الحرب بين المسلمين.

ولكن من المؤكد عند أغلب المؤرخين وفي المصادر والمراجع التي تناولت التطورات السياسية والفكرية في صدر الإسلام أن المعتزلة كمذهب فكري ارتبط بذلك السؤال الذي طرحه أحدهم على الإمام الحسن البصري والمتعلق بموقف الإسلام من مرتكب الكبيرة، حيث كان السؤال كالتالي: "يا إمام الدين لقد ظهرت في زمننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبير عندهم كفر يخرج من الملة، وهم وعيدية والخوارج وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا؟".

وقبل أن يجيب الحسن البصري عليه قطعه واصل بن عطاء وكان أحد تلاميذه بقوله: "أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافراً مطلقاً بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر"، ثم قام من مجلس الحسن البصري واتخذ له ولأصحابه مجلساً بجانب أحد سواري المسجد، وعقب الحسن على هذا الفعل بقوله: "لقد اعتزل عنا واصل".

3. التسميات المعروفة عن المعتزلة:

تعددت التسميات التي أطلقت عليهم، زيادة على الاسم الذي اشتهروا به في بادئ أمرهم وهو اسم المعتزلة، وهذه الأسماء جاءت على الشكل التالي:

أ. أهل العدل والتوحيد: وهو الاسم المحبب إلى المعتزلة وأنصارها، وهو مستمد من أصلين من أصولهم الخمسة، الأصل الأول التوحيد، الأصل الثاني العدل.

ب. الجهمية: لقبوا كذلك بالجهمية، لأنهم استمدوا بعض عقائدهم من الفرقة التي أسسها الجهم بن صفوان ومن هذه العقائد نجد: القول بخلق القرآن ونفي الصفات عن الله سبحانه وتعالى.

ت. القدرية: لقبوا بالقدرية، لقولهم ببعض آراء فرقة القدرية، ومنها أن الإنسان خالق لأفعال نفسه، وخاصة أفعال الخير ونجد هذا الأمر في الأصل الثاني للمعتزلة وهو العدل الإلهي.

ث. المعطلة: هذا اللقب أطلقه عليهم أهل السنة والتوحيد لفهم الصفات الإلهية وتعطيلهم إياها.

4. الأصول الفكرية والعقدية عند المعتزلة:

أ. التوحيد المطلق: التنزيه الخالص لله تعالى فهو ليس بحسم ولا شبح ولا جوهر ولا عرض ولا جزء ولا كل، وبنوا على هذا التنزيه بالقول بوحدة الذات والصفات وبالتالي نفي الصفات الزائدة عن الذات الإلهية، ونفوا كذلك قدم الصفات فلا قديم إلا الله، وبالتالي اعتبروا أن القرآن ليس كلام الله بل هو مخلوق مثل باقي المخلوقات.

ب. العدل: أهم ركن عقدي عندهم وهو قائم على القول بالمسؤولية التامة للعبد على أفعاله خيرها وشرها، وبالتالي نفوا عن الله تعالى خلقه لأفعال البشر السيئة منها لأن الله في نظرهم عادل ولا ينبغي له أن يجور على عباده.

ت. الوعد والوعيد: وهو التوعد بوقوع الجزاء على حسب الخطب الإلهي، فالناس في نظرهم يحكمون على مصيرهم بأفعالهم في الدنيا، وهم بالتالي ينكرون شفاعاة النبي في الآخرة.

ث. المنزلة بين المنزلتين: وهو أصل عقدي مرتبط في قضية المسلم المقصر في الدنيا فهو لا يستحق حمل اسم المؤمن ولا اسم الكافر بل هو في منزلة بين المسلم والمؤمن.

ج. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو الأصل العملي للمعتزلة وهم يتشابهون مع الخوارج في هذا الأمر، وهم يدعون إلى الخروج عن السلطان بالسيف إذا لم يطبق شرع الله تعالى ولم يقل بالقدرة وخلق القرآن وغيرها من أصول المعتزلة.

5. أهم أعلام المعتزلة:

- واصل بن عطاء (ت131هـ) مؤسس فرقة المعتزلة، وقد أشرنا إلى أنه كان من تلاميذ الحسن البصري، ثم اختلف معه في مسألة مرتكب الكبيرة واعتزل مجلسه.
- عمرو بن عبيد (ت144هـ) وهو من تلاميذ الحسن البصري وواصل في نفس مذهب واصل بن عطاء.
- أبو الهذيل العلاف (ت235) أحد أبرز المتكلمين عند المعتزلة وهو من وضع أسس علم الكلام عندهم.
- إبراهيم النظام: (ت231هـ) وهو أحد تلاميذ أبي الهذيل العلاف، وكان له بعض الآراء المختلفة عن الآخرين.
- الجاحظ (ت255هـ) صاحب البخلاء وهو من أبرز الأدباء وقد ألف كتباً كثيرة في الدفاع عن مذهب المعتزلة.
- أبو علي الجبائي (ت303هـ) وافق أبو الهذيل في العديد من أفكاره، وهو شيخ أبا الحسن الأشعري مؤسس فرقة الأشاعرة.

6. المعتزلة المذهب الرسمي للخلافة العباسية:

بقيت أفكار المعتزلة تنتشر إلى غاية تبنيها رسمياً من الخليفة العباسي المأمون ابن هارون الرشيد، حيث اتخذ من المعتزلة مستشارين له وفرض مبدأ خلق القرآن كعقيدة رسمية للدولة، وتذكر الروايات أن المأمون ادعى أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرؤيا وقام يدعوه إلى ترجمة الكتب اليونانية، واستمر تبني الفكر المعتزلي في عهد أخيه المعتصم فحمل الناس على أقوال المعتزلة وقرب علماءهم ونفس الشيء في عهد الخليفة العباسي الواثق بالله ابن المعتصم، وقد استفاد المعتزلة في هذه الفترة من بيت الحكم أية استفادة من خلال كتب المناطق اليونانيين والفلاسفة العقليون والمنطق الكلاسيكي، وهذا من أجل صياغة حججهم العقدية خصوصاً في مسائل خلق القرآن وحرية الإرادة والعدالة الإلهية.

7. دخول الاعتزال للغرب الإسلامي:

أولاً. عوامل انتشار الاعتزال في الغرب الإسلامي:

تطافرت العديد من العوامل في دخول الاعتزال في بدايات القرن الهجري الثاني، ويمكن إجمالها في الآتي:

- أ. جهود الدعاة المعتزلة: وخاصة مبعوث واصل بن عطاء عبد الله بن الحارث والذي انظم إليه خلق كثير بعد وصوله إلى المنطقة في الفترة ما بين (110-120هـ).

- ب. سلطة الأغلبية: اعتنق الكثير من أمراء الأغلبية للمذهب المعتزلي رسمياً اقتداء بالخلفاء العباسيين، وقد أخذ أهل السنة بمحنة خلق القرآن أيام محمد بن الأغلب، ونال الفقهاء محنة كبيرة بسبب فتنة خلق القرآن.
- ت. الحضور الزيدي: التوافق الفكري بين إدريس مؤسس الدولة الإدريسية صاحب المذهب الشيعي وبين الفكر المعتزلي حيث قام هؤلاء بدعم إدريس في تأسيس دولته.
- ث. الرحلات العلمية بين المشرق والمغرب: تسببت الرحلات العلمية لنخبة المغرب والأندلس للمشرق في نقل آراء المعتزلة للغرب الإسلامي، حيث نقل العديد من العلماء المغاربة الفكر المعتزلي من المشرق إلى المغرب من أمثال فرج بن سلام القرطبي وإبراهيم بن عبد الله بن حصن الغافقي، وسليمان بن أبي عصفور الفراء صاحب كتاب أعلام النبوة، خلق القرآن.

ثانياً: جغرافية المعتزلة في الغرب الإسلامي:

- أ. المغرب الأدنى: القيروان عاصمة الأغلبية العلمية والسياسية دان أكثر حكامها بالاعتزال تبعاً لخلفاء بني العباس، وتظهر الكتب أن عدداً كبيراً من القضاة الأحناف المعتزلة قدموا إلى القيروان من المشرق، كما تظهر مدينة قابس كمركز للمعتزلة في المغرب الأدنى.
- ب. المغرب الأوسط: انتشر المذهب المعتزلي بين قبائل زناتة حيث اعتنقوا مذهب واصل بن عطاء، ودخلوا فيما بعد في صراع مع الرستميين حول الإمامة.
- كما انتشر الاعتزال في عاصمة الرستميين تيهرت بسبب جو التسامح الديني الذي تبناه أئمة الإباضية، وقد سادت في هذه الفترة العديد حلقات المناظرة بين الإباضيين والمعتزلة في قضايا عديدة ومن أهمها العدل والتوحيد.
- ت. المغرب الأقصى: انتشر الاعتزال في ريف طنجة، وبالتحديد في قبيلة أوربة وهي التي ساهمت في تأسيس الدولة الإدريسية بقيادة إدريس الأكبر الزيدي.

ثالثاً. الموقف الفقهي السني من الانتشار المعتزلي في الغرب الإسلامي:

- واجه فقهاء السنة أفكار الاعتزال وتصدوا للمعتزلة في كل الأوقات، ونجد على سبيل المثال الفقيه السني عبد الله فروخ الذي رفض أن يصلي على جنازة أحد المعتزلة، وقد قاسمه في ذلك الفقيه بهلول بن راشد هذا الأخير الذي كان ينكر على تلاميذه محادثتهم للمعتزلة.

أما في عهد دولة الأغالبة، وهو العصر الذي اشتد فيه عود المعتزلة بعد أن أصبح المذهب الرسمي للدولة العباسية وكذا الأغلبية، فتصدت مسألة خلق القرآن المشهد في الصراع بين القضاة الأغالبة وبين علماء السنة، وكان في الإمام السني عبد السلام ابن سعيد التنوخي الملقب بسحنون في طليعة من عارضوا بشدة مقالات المعتزلة وهو ما سبب له مضايقات أدت في الكثير من المرات إلى جلده بالسوط من قبل أمراء الأغالبة.

رابعاً. أسباب تراجع وأفول الفكر المعتزلي:

- رغم أن المعتزلة قد أحدثوا نهضة فكرية في الأوساط العلمية مشرقاً ومغرباً، ولكن فرقتهم أقل نجمها للأسباب التالية:
- عندما تولى المتوكل الخلافة في بغداد منع المناظرات المتعلقة بمسألة خلق القرآن، ومن ثم تخلي الدولة العباسية رسمياً عن أفكار المعتزلة، وهي الضربة القاسمة للفكر المعتزلي.
- أما في الغرب الإسلامي فسقوط دولة الأغالبة وكذا الرستمية على يد الفاطميين جعل الساحة العقدية تتحول من صراع معتزلي سني إلى صراع سني شيعي، وبالتالي توقف الحديث عن خلق القرآن والصفات الإلهية.
- الرفض الاجتماعي لأفكار ومعتقدات المعتزلة، ولعل فكرة خلود صاحب الكبيرة في النار جلب لهم سخط الفقهاء وعامة الناس وبالتالي انحصار أفكارهم المتطرفة.
- ظهور بعض الفرق المعتدلة والتي تبنت بعض أراء المعتزلة ولكن بصيغة اعتدالية على غرار الأشاعرة والماتريدية، عجلت بنهاية المعتزلة في المشرق والمغرب الإسلاميين.